مدخل الى رواية :

ضائع في "سوهو" !

تأليف كولن ويلسن

ترجمة يوسف شرورو

يسر « دار الاداب » ان تعلن انها تعاقدت مع الكاتب الانكليزي الشهير كولن ويلسون على ترجمة عدد من كتبه، ولا سيما الجديدة ، الى اللغة العربية . وسوف تصدر قريبا عن الدار روايته الاخيرة « ضائع في سوهو » التي ننشر فيما يلي مقدمتها .

اسمي هاري بريستون ، طردت من سلاح الطيران الملكي ،ومنحت ـ لسبب من الاسباب نسيته الان ـ مكافأة مالية كبيرة . وكانوا فرحين لتخلصهم مني ، ومن رؤية وجهي بينهم ، مرة ثانية للمنع الحياه المدنية في عيني ، مرة ثانية اعيش في حرية طليقة ، مزودا بمبلغ من المال لم املك مثله في حياتي كلها . العالم ينشد لي ، يفتح ذراعيه وابوابه، ويتركها بانتظاري ، سادفع لامي تكاليف معيشتي عندها ، اعتادت ان تأخذ جنيهين اسبوعيا ، وذات يوم وضعت في يدها نقودا كثيرة تكفي لعيشتي معها خمسة شهور كاملة .

سانطلق لاعمالي الخاصة ، سأكتب مسرحية رائعة ، او رواية ضخمة ، سأتمكن من ترويض نفسي على نظام صارم كالمؤلفين الكبار . سآخذ من المكتبة العامة بينا ، قد اكتب لست ساعات متواصلات دون تعب ، وسأتناول السندويشات الخفيفة ، وسأسير في شوارع بلدتنا الصغيرة خلال زيارة الظلام لها . سأتطلع ببهجة عميقة الى اضواء النيون الملونة المشعة في واجهات المحلات ، وفي المصانع ، وتهدر في اذني ضجة الالات الضخمة ، واشم رائحة الجلود والزيوت المعدنية ، والخشب المصبوغ . ففي هذه اللحظات يتذوق الانسان الطبيعة الخفية ،والحرية البعيدة البعيدة ، اذ تبرز له لوهلة بسيطة ، بانها محصورة بين عالمين لا رابط بينهما . لماذا اذن ، ان لم يكن ذلك صحيحا ، يتجمع الناس بعيون مبهورة ، امام المباني القديمة عند هدمها ؟ في ذواتهم تتدفق لذة الشعور بالحرية ، والقدرة الكاملة على التدمير . انا لم استطع استغلال طاقاتي ، فقد مكثت يومين في المكتبة العامة ، وشعرت بملل قاس ينهشني ، واستعصت علي بداية مسرحيتي النائمة في عقلي ، لم اكتب شيئا . جلست هناك ، محاطا بضجيج الاوراق وتقليب الصفحات ، وطرقات الاحذية الثقيلة ، ورائحة الجلود والاصبغة . وفكرت . فكرت طويلا في الامكانيات اللانهائية التي تحتويها الورقة البيضاء الراقدة بخشوع امامي . ثم عدت الى قراءة عدة صفحات من كتاب « ميجر باربره » لبرنارد شو ، معجبا ومشدوها بدقته وعظمته ، وتساءلت بصمت : كيف يمكن لكاتب ما ان يتمتع بهذه الدقة في جو من الحرية الموحشة ؟؟

عطست العجوز المعروقة الجالسة امامي ، وغمغمت ومسحت انفها بمنديل . كانت عيناي تنظران بشبق الى الموظفة الشابة المنتصبة خلف مكتب الاستعلامات ، كم وددت لو احصل عليها بالرغم من افتقارها الشديد الى الجمال . انا اعرفها معرفة بسيطة ، فقد كنا معا في المدرسة يوما ما . تمنيت لو احادثها ، فقد كانت تبتسم لي بعذوبة كلما وضعت قدمي داخل المكتبة ، ولكن ماذا اقول لها ؟ ان المواضيع القليلة الهامة لي ، ستحرك دوائر الملل المترسب في نفسها . وعدت مهزوما الى الورقة البيضاء ، بعد ان سرحت بفكري بعيدا عن موضوع مسرحيتي . وجاءتني فكرة تتناول النظام ، وتساءلت من جديد : ما هو النظام ؟؟ هل هو خنق الاندفاعة الجنسية التي تلح بجنون ؟ هل هو كبت مأساة السرحان اللامجدي ؟؟ ولكن ما هو الشيء الذي اريد تنظيمه ؟؟

انا اقدر على تسليط عقلي ، على الورقة البيضاء ، حتى انفجر . استطيع ان اتجاهل العجوز المعروقة وعطساتها ، استطيع ان الجم عيني عن النظر الى الموظفة الشابة التي تتسلق الدرجات الخمس الاولى من سلم المكتبة لتتناول كتابا من على رف بعيد . لا ارغب في معرفة لون ملابسها الداخلية الشفافة ، ولكنني لم ابدأ بالكتابة ، وما زالت ورقتي عذراء .

لا . من المستحيل حتى ولو روضت نفسي على نظام صارم ،ان ادع الكلمات تتوالد على السطور ، من المستحيل ان املأها بالكلمات ، كما يملأ الزئبق ميزان الحرارة عندما ترتفع درجته الحرارية الى اقصاها .

ان حياة الانسان تعكس القضية ، وانا اؤمن بان حياة البعض فارغة، لا امل يبرق فيها . بينما ارى حياة اخرين حافلة بكل شيء زاه ، كان حيواتهم قد خططها لهم ، كاتب مسرحي شهير ، قد تبدو كقطعة فنية، فيها شيء من المنطق ، قد ينبعث هذا المنطق من روائح الجلود التي تفوح مساء من المصانع ، فتتحول الى بلورة براقة . ولكن ، هل تنطوي الحياة العادية الرتيبة على شيء من النكهة ؟؟

انفقت عشرة جنيهات من الاربعين جنيها في اكتشاف حقيقة هامة، من المستحيل أن تكتب الروايات او المسرحيات بقذف كلمات منمقة على السطور . كما يقذف النرد على الطاولة ، مع رجاء ساذج بان يكون الوجه « ستة ستة » .

فجأة شعرت بشعور البخيل الذي يود ان يسترجع جنيهاته العشرة التي اضاعها في شراء حاجة من الحاجيات . لو امكنني استرجاع النقود لما شعرت بهدر اسبوعين من حياتي بلا جدوى . ونتيجة لاكتشافي العظيم هذا ، توجهت صباحا الى مكتب التشغيل المحلي ، وقلت بنبرة عالية :

ـ اريد ان اعمل !!

كان يوما ماطرا من ايام تشرين الاول ، وكان حذائي يحتاج لتصليح واجهته الامامية ، والشوارع مزدحمة بالناس العاديين امثالي ، ودخلت محلا تجاريا ، لاشتري شيئا ولا ادري لم تخيلت نفسي واحدا من العمال الذين يرتدون البدلات الزرق ، ويحملون على اكتافهم صندوقا من صناديق الشاي ، لوضعه بلطف على الرف البعيد . ولكنني فجأة، شعرت بانني حبيس ، ولا منفذ لي . انا اعيش في مجتمع حر. لا يلحق الضرر بأي فرد ، فلو خطفت رغيفا من الخبز الطازج كصاحبنا « جان فالجان » فلن اعاقب بوحشية . ولو انني ارتكبت جريمة قتل فسوف

اسجن ما شاء صاحب السيادة . قد اقف في الميدان العام واهتف بسقوط البوليس والنظام ، دون ان يتحرك احد ، واذكر ان احد رجال البوليس علق على خطاب يلقيه مجهول ضد الملكة فكتوريا قائلا :

ـ دعه ينفس عن غضبه . ان خطابه سوف يخفف من مشاكله ، ولكنه لن يضر الملكة .

ولكن السجن بالرغم من جميع مظاهر الحرية ، متين القضبان ، كئيب . فلا خيار لي . اما العمل في مصنع ، واما في مكتب ـ كما كنت في سلاح الطيران الملكي ـ انا استطيع ـ لو شئت ـ ان احترف التشرد . ولكن البرد مخيف في تشرين الاول ، واينما ذهبت ، ومهما فعلت ، فسيبقى المجتمع مندفعا في طريقه ، لا يحسدني ، ولا يلتفت نحوي ، لن آخذ شيئا ، ولن يمنحني شيئا . وانبثق شعور حاد حانق على والدي الذي لم يستطع ان يكون غنيا ، ويسهل لي سبل الرفاهية الحيانية كما اتمناها واريدها ، فهي حق لي لم اتمتع به حتى الان .

جلست في مكتب التشغيل على مقعد خشبي طويل ، بجانبي سرب من رجال طالت لحاهم ، وتآكلت معاطفهم التي كانت سميكة ، ونفذت الى انفي رائحة البلل المنبعثة من ثيابهم . اخرجت كتابا صغيرا من جيبي وحاولت أن اقرأ شيئا عن فلسفة « ماركوس اوريميوس »فاصابني شعور بالقرف فهو لم يقاس في حياته ، كان امبراطورا كبيرا ، لم يعرق لينال ما يريد ، اختار الحكمة لسهولتها ، وسهولة حياته ، فانى لي الحكمة ، وانا انسان يواصل افراز عرقه لينال خبزه اليومي ؟؟ سألني الموظف الاصلع عن سبب تركي لسلاح الطيران الملكي ، فاجبت شاعرا بالخجل :

ـ اضطراب في المعدة .

والحق ان اوراق تسريحي تقول بكل صراحة « اضطراب في الاعصاب » .

واكتفى الموظف بجوابي القصير ، وسألني عن نوعية العمل الذي ارغبه . من السخرية ، انني لا احب العمل اطلاقا . ولا ادري كيف قلت له بانني اريد عملا يدويا .

ارتسمت دهشة مفاجئة على وجه الموظف وقال :

ـ ولكن يابني ، العمل اليدوي يتطلب قوة كبيرة ، ومتانة في البنية ، وانت لا تصلح له .

قلت بايجاز : ـ العمل اليدوي اجرته مرضية لي .

اقتنع الموظف ، واخذ يقلب امام عينيه عدة بطاقات ، اختار منها واحدة بالصدفة وسألني :

ـ ما رأيك بهذا العمل ؟؟

كانت عملية بناء على بعد عشرة اميال من بلدتنا الصغيرة . قبلت العمل بسرعة ، وبدا الموظف يملي تعليماته بلهجة باردة :

ـ عليك ان تذهب في السابعة صباحا من كل يوم . لا تتأخر .

اخذت بطاقة عملي ، وخرجت من عنده ، قابلت صدفة رئيس العمال ، حيث اطل من وراء كوخه الخشبي وسألني :

ـ هل انت طالب في كلية ؟

قلت بسرعة : ـ لا !

ـ كم تنوي ان تبقى معنا ؟

ـ ثمانية اسابيع على الاكثر .

اجبت بذلك محاولا ان ابدو غير مكترث لشيء . اعاد الي البطاقة وقال آمرا :

ـ ارسل بطاقتك غدا الى مكتب التشغيل ، وقابلني في السابعة تماما . احضر معك طعاما ، فلن تجد شيئا هناك ، لا يوجد عندنا مقصف للعمال .

غمرني شعور بالارتياح ، عندما اخذت الباص عائدا الى البيت. انا ملتزم بعمل جديد . احسست بنوع من القناعة ، ما زال عندي ثلاثون جنيها ، قد اقع في مأزق لا مخرج لي منه . ستتيح لي هذه الجنيهات مجالات واسعة ، ستكون قلعتي الآمنة التي اطل منها على العالم . وفي البيت سر والداي بنبأ استلامي لعمل جديد . وذهبنا للعشاء . كان

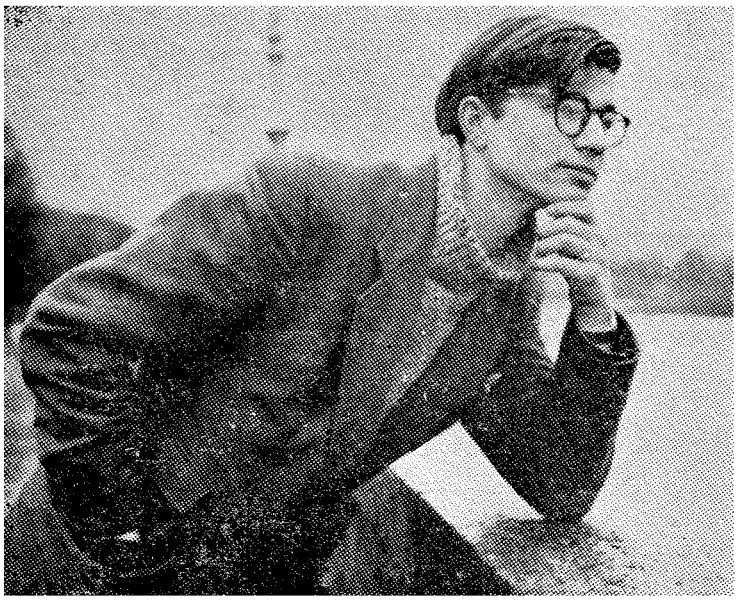

كولن ويلسون

●

عشاؤنا من لحم العجل المسلوق . اقول « عشاء » لان سكان المناطق الوسطى من انكلترا يسمون الغداء « عشاء » . الاعشاب الخضراء تتسلق شبابيك المطبخ ، معطف ابي المبلول يتأرجح بالقرب من الموقد . من عادة ابي ان يذهب الى عمله ، ممتطيا دراجته ، حتى لوغطت ثلوج السماء ، شوارعنا كلها . كنت متعبا ، وكان يومي حافلا باحداث جديدة لن تزول من ذاكرتي ابدا .

حاولت ان اهزم الانقباض الكئيب الذي هاجمني بجرعة كبيرة من الحساء ، ستزول ايام حريتي بانتهاء هذا المساء .

لم يكن العمل سيئا كما توقعت . تربعت على ظهر سيارة نقل كبيرة ، مغطاة بقماش واق ضد المطر ، فحملتني ـ وهي تخضني الى الاعلى والاسفل ـ الى نوتنجهام .

كان رفاقي العمال يتحدثون عن نتائج مباريات كرة القدم . لم يوجه احدهم نظرة الي . تنبه الى وجودي شاب صغير من عمري ، فتح فمه التراخي ، وبدأ يقص علي ، قصة ليلته الماضية ، فقد اصطاد فتاة صغيرة واخذها الى غرفته . قال وهو ينتفخ كالديك :

ـ هل تدري من كانت فتاتي ؟ انها ابنة مدير مدرستي السابقة !!

ومضت السيارة الكبيرة في الاندفاع ، والعمال ساهون عني، غير ان غطاء « الترموس » الزجاجي الذي احضرته معي ، وقع فجأةوتكسر. وخسرت الشاي الذي عملته امي لي . وسبب افساد بعض السندويشات. القيت بالطعام المبلول ، ولففت الباقي في جريدة قدمها لي احد رفاقي العمال وهو يبتسم . تطلعت الى الجريدة لاقرأ شيئا ، وهنا ذكر احدهم بانهم توقفوا عن العمل في اليوم السابق بسبب هطول الامطار . نظرت الى السماء ، ولكن الشمس اشرقت بلمعان غريب .

توقفت بنا السيارة . ونزلنا الى مصنع لم يكتمل بناؤه بعد . كانت مهمتنا ان نحفر الخنادق العريضة ، ونمد اسلاكا كهربائية عديدة. حملت فأسي بارتباك ملحوظ كفتاة مدرسة لا تدري اين تضع انفهاعندما تقبل حبيبها لاول مرة . تقدم احد العمال وعرض مساعدته ، وارشدني الى الطريقة الصحيحة لحمل الفأس ، وكيف اقبض على طرفه بليونة وسهولة ، واهوي به ، فاتحا ثغرة ارضية ، وختم محاضرته قائلا :

ـ العامل المحترف يستعمل يده اليمنى واليسرى ايضا عندما يهوي بفأسه بلا تردد .

ما زلت اذكر كلماته ، حتى الان ، ولكن للاسف ، لم اجد فيها اية فائدة .

جاء احد العمال ، واشار الى قطعة من الارض ، ثم قال :

ـ نظف التربة من الحجارة ، ثم ابدأ الحفر .

التقطت الحجارة وكومتها داخل العربة اليدوية ، واخذتها بعيدا، حيث القيتها على بعد عشر ياردات . عملت كالمجنون لاطرد البرد الشديد عن جسدي ، وفي نصف ساعة ، كان بنطال سلاح الطيران قد تلوث حتى الركبة . في تلك اللحظة سلطت عينا رئيس العمال علي ، كان بدينا ، مخلع الاسنان ، ويحمل لقبا يعتز به ، وهو « الكابتن » ، تقدم مني ، واخذ يقذف باسئلته السريعة ، فرددت عليه باسئلة معاكسة . وهنا ابتسم بعطاء صادق ، وبدأ يحدثني عن الايام القاسية التي عاشها وهو يعمل كعامل بسيط ، واخيرا قال كمن يهاجم عودة ذكرى لا يحب ان يراها مرة ثانية :

ـ كانت ايامنا تعيسة وشقية يا بني ، انتم الشباب لا تعرفون كم كانت كئيبة وفارغة ايامنا ، سبحان ربي ، لن يصدق هولها الا من عاش فيها .

ثم نادى « توش » وهو عجوز بارز العظام ، فاكد ذلك واخذ يتحدث عن ايام البطالة ، وكيف اذلته الشهور الستة التي لم يعمل خلالها كل سنة ، كان موظف مكتب البطالة يأتي الى بيته ، ويشير الى محرك النار الحديدي ، وينكه الفحم الفارغة ، والكرسي العتيق . ويقول دون ان تهتز عضلة من عضلات وجهه :

ـ آسف ، لن ازيف الحقيقة ، فانت تملك متاعا ، تستطيع بيعه بخمسة شلنات .

وتدخل الشاب الصبي ، صاحب الخبرة الجنسية الواسعة ،قائلا:

ـ كم وددت لو قالها لي انا ، فسأدق عنقه فورا .

اجاب الرجل العجوز وفمه الخالي من الاسنان يمضغ قطعة من الجبنة الصفراء :

ـ كم وددت لو كنت معنا ، ستجوع مثلما جعنا يا بني .

عدت الى حفر الارض ، تسلخ كفي الايمن ، تقدم مني الصبي الذي حدثني عن مغامرته مع ابنة مدير مدرسته ، وقال وهو يبتسم :

ـ عليك باليد السرى . اذا اردت ان تداعب شيئا الان !!

كلماته مبهمة لم افهمها ، توقفنا عن العمل بعد ساعة ، وجلسنا في الكوخ الخشبي نتناول وجبة سريعة ، حزنت على ضياع الشاي، ولكن احد العمال اقترح بان اشترك « بهاف كراون » اي « بشلنين وستة بنسات » في عضوية نادي الشاي ، ثم قال وهو يغمز :

ـ سوف تشرب ثلاثة اقداح من الشاي كل يوم .

وعلمت ايضا بان شركة مجاورة قد افتتحت دكانا صغيرا لبيع الشاي وبعض الحلوى ، وقد كانت الدكان عبارة عن كوخ خشبي تديره فتاة شاحبة الوجه اسمها « بتي » . ذهبت لاشتري منها ما ارغب فيه . شربت الشاي مع قطعة « كاتو » فاصابني الم شديد ، ولكن الالم زال بعد ساعتين عندما تناولت سندويشات الغداء . وغابت الشمس الشديدة اللمعان واخذ المطر يهطل باستمرار مخيف ، لم يتكلم احدنا عن توقف العمل وانصرافنا ، وبقينا نعمل في المطر ، ذهبت لمساعدة العمال في تنزيل لفة ضخمة من الاسلاك الكهربائية ، اوصلتها الى مكان عملنا ، سيارة كبيرة . وفجأة سمعنا دويا عنيفا ، ورأينا بريقا آتيا من ورائنا، اصابتني رجفة ، ودرت لاهرب ، فرأيت رجلا منبطحا في الوحل ،وفي وجهه آثار دهشة مفاجئة .. وبعد قليل ازال الوحل عن ملابسه ، واخذ يشتم ويجدف ، وهرع العمال من كل مكان ، وسمعت « توش » العجوز يقول :

ـ الحمار . لقد ضرب الاسلاك الكهربائية بفأسه . كنت انتظر هذا من واحد مثله .

نظرت الى الخندق ، ورأيت الفأس المحترقة ، وشاهدت ايضا سلكا كهربائيا مغطى بالرصاص ، مختفيا في باطن الارض ، ولكن النقطة التي اصابها الفأس ظهرت واضحة ..

قال « نيبر » العامل الذي سبب الحادثة :

ـ لم ار شيئا كهذا في حياتي . لقد تطاول عامود من اللهب الازرق في الهواء ، وكأنه سطل أفرغ من الماء ، من الطابق الخامس .

وجاء الكهربائي وقال موجها حديثه الى « نيبر » :

ـ كانت نجاتك اعجوبة . ان السلك المقطوع يحمل شحنة كهربائية تقدر بعشرين الف فولت . ولولا مقبض الفأس غير المبلول وحذاء المطاط الذي تنتعله ، لكنت الان اسود كالفحم الحجري ، ميتا كفأر صغير .

ابتهج « نيبر » عند سماعه كلمات الكهربائي ، ولكن رئيس العمال تقدم منه وصرخ في وجهه قائلا :

ـ انت نقل اعمى . انتبه في المرة القادمة ايها الزنديق .

ثم امرنا بلهجة صارمة بان نعود الى العمل . وبدأ الكهربائي يعيد ربط الشريط الذي قطع ، وكنت انا اعمل بقربه ، مما اتاح لي فرصة مراقبته ، رأيته يضع قطعة مربعة من المطاط في اسفل الشريط ، ثم وضع ثقل جسده على ركبتيه . واخذ يقطع الشريط بمنشار جاد . كان يقبض بيده على الشريط الموجب ، كأنه يقبض على حبل لا قوة كهربائية مدمرة في داخله . امدتني هذه الحادثة بفيض من الارتياح ، وجعلتني اشعر بان هذا محيطي . وانهمر مطر غزير بدا كضباب رمادي. وامتلأ خندقنا بالماء في دقائق قصيرة ، فركضنا نحتمي في الكوخ،واطلقنا عيوننا الى الخارج ، نراقب المطر بفرح خفي . لكننا اصبنا بالبلل حتى العظام ، وشعرنا بالبرد من هبوب الرياح الباردة . كنا على مسيرة عشرة اميال من بلدتنا الصغيرة ، غير اننا لم نستطع اخفاء فرحتنا بالمطر ، فهذا يعني توقفنا عن العمل ، مع استمرارنا لاخذ اجرتنا الاسبوعية . واخيرا استدعى رئيسنا سيارة النقل المغطاة بالقماش السميك ،وتكومنا داخلها كاكوام الحجارة ، وتحركت بنا الى البلدة .

عندما افترقنا ليذهب كل منا الى بيته ، كان المطر ينهمر بغزارة شديدة .

راقبت خلال الايام الثلاثة الاولى طباع رفاقي وتصرفاتهم ، علني استخلص قدرا كبيرا من تجربتي الجديدة التي فرضتها على نفسي كعقوبة . لقد اذهلتني التجربة في بداية الامر ، ثم تبخرت .

كان «تيري» هو الذي جذب اهتمامي اكثر من غيره . وقد التحق بالعمل بعدي بيوم واحد . ووضعني تحت رعايته . الا ان رئيسنا كان يعتبره فاسدا ، لا يصلح لان يكون قدوة لغيره من العمال . كان خبيرا بتفادي العمل . تعلمت منه هذا . ويبدو انه كان صاحب فطنة غريزية تنبهه الى اللحظات التي لا بد فيها من التظاهر بالعمل ، وخاصة عندما يبرز رأس « الكابتن » من وراء كومة الحجارة ، مراقبا سير العمل. اما بقية الوقت فقد كان « تيري » يرتكز على معوله ، ويدخن بشراهة من سجائري ، ويقص علي فصلا جديدا من حياته الحافلة العميقة ، ابتداء من الحرب العالمية الاولى .

كان « تيري » يمتاز بميزة عمالية عتيقة ـ كان يعتبرها ميزة ـ وهي معرفة كل الشتائم . وقد كان رجلا نحيفا اسمر الوجه . حاولت ان

فنـدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتـدلة

بادارة : حلمي المباشر

اشبهه « برابليه » ولكن البذاءة التي تتعلق على لسانه ، هدمت جميع محاولاتي في ايجاد شبيه له . من عادته ان يسألني كل صباح عما اذا نمت مع فتاة أم لا . كنت اعرف ماذا يرمي بسؤاله هذا . كان يتمنى ويذوب شوقا لان اسأله بدوري ، عما فعل في الليلة الماضية ، كي افتح فمه واجعله يتحدث عن ذكرياته الخصبة .

يبدو لي بان زوجته كانت في غاية البدانة ، وانه يتشاجر معها باستمرار . وقد حاول مرارا ان يهجرها ويفر بخفة . ولكنه كان من الكسل بحيث لا يبتعد خطوات حتى يقبض عليه بوليس البلدة بطلب منها ، ويودعه السجن ، ويطالبه بنفقة زوجته الوحيدة . وقد ذكر لي، بانه يقضي شهرا واحدا من كل سنة بالسجن المحلي ، وقد كان معتادا على القيام بجولة ليلية ، يزور فيها كل حانات البلدة . كانت ليلته العظيمة يوم الدفع ، ففي يوم الجمعة يأخذ اجرته الاسبوعية . ويذهب ليكرع حتى يرتوي وينتشي ، ثم لا يدري ، كيف انقضت الساعات،ففي يوم الاحد ، يجد نفسه في بيته ، ولا يجد في جيبه « بنسا » واحدا .

واحيانا كان يذهب الى بيته مبكرا ، اي قبل منتصف ليلة الجمعة، ويركل زوجته بقدمه حتى تستيقظ ويطالبها بحقه كزوج قائلا في دعابة:

ـ اعطيني حقي ، وخذي اجرتي الاسبوعية .

وعندئذ كانت تنتقل النقود من يد الى اخرى ، وكانت ـ اللعينة ـ كما يلقبها ، تحصي النقود ، قبل ان تمنحه نفسها ، ففي مرة سابقة ، اعطاها حزمة من ورق الجرائد ، بعد ان طواها بعناية فائقة فظهرت كاوراق النقد .

وقد حدثني ذات مرة بان زوجته ـ اللعينة ـ كانت تقفل باب غرفتها عندما تسمع صوته المتعثر بالخمرة يعربد مغنيا الاغاني القديمة، ولكنها توقفت عن ذلك بعد ان علمت ، بانه كان يضاجع ابنتها الصغيرة . (لا ادري ـ حتى الان ـ ان كانت رواياته الجنسية ملفقة ام حقيقية . وقد كان معظمها غير صالحة للنشر ، ولكنني اعترف بصراحة بان عقله كان خصبا وغنيا ، وانا اضعه في المرتبة الثانية بعد المركيز دي ساد مباشرة) . كان « لتيري » صدق بدين ، يبلغ من العمر، ربع قرن . وكان اسمه يقترن دائما باسم « تيري » وقد بدا لي ان الاثنين يأخذان ثقافتهما من مكان واحد . وكان المدينة الصغيرة تصب قنواتها القذرة في داخلهما . خفت على نفسي ان اصبح عامودا ثالثا لهما فابتعدت ، خاصة عندما بدأت تلاحقني عينا « الكابتن » الحذر على سير العمل .

طالت ايامي بينهم ، وحفرت جدران صماء في رأسي . الوجوه لا تتغير . الاحاديث عادية ، اسابيعي الثلاثة جليدية كالليل الذي يغطي الارض ، اكاذيب الشاب ذي الميول الشهوانية ، باتت تافهة لا تثير في اية رغبة للاستماع ، اللقب الذي يلصقه بالفتيات كلهن ، لم تحتمله نفسيتي ، قال لي يوما بنبرة باردة لم احبها :

ـ كل الفتيات « بغايا » فلا تثق بواحدة يا هاري .

لم اقل شيئا ، فوجدها فرصة سانحة للخوض في تفاصيل صغيرة سخيفة عن الاشياء التي تبرز فجأة عند الجماع الجنسي ، وكيف على الرجل الحق ان يعالجها بسرعة وبقسوة ، حتى ولو ذهبت الفتاة وجلست للاعتراف في كنيسة منطقتها .

كنت ارغب رغبة حقة في تجنبه ، كان يحبني ويثقفني جنسيا ـ كما يقول ـ ويفترش ارض السيارة بجانبي ، وعيناه الباهتتان،تبتسمان لي بغباء اخرس . كنت ابغض رؤية فمه المتراخي ، وشعره الباهت . اصبح وجهه بكل قسماته امثولة صادقة لقاتل نساء مخبول ، وانا الى الان ، كلما ذهبت في قراءة جريمة جنسية مخيفة ، اتخيل صورته على اعمدة الجريدة ، تبتسم بغباء اخرس . انه من النوع العادي الذي تقابله في كل مكان ، يذهب الى دور السينما ، ويشاهد اعلانات «الافزيون» وتتلاعب بعقله الطفولي الكلمات العابرة ، والجمل الجاهزة التي تطلق بلا رحمة من الاذاعات ، ومن الافواه المزيفة ، كان ميت الشخصية والهوية ، وموضوعه الاثير الى نفسه ، الجنس بكل انواعه !!

زال اهتمامي بالعمال كافراد حية ، وخمدت جذوة الحياة ، ومعناها . لا بد لي من سنين عديدة متواصلة ، حتى اطل برأسي من خلف اكوام الحجارة ، والقب « بالكابتن » . الفكرة مملة وصغيرة . ولكن ميلي الى القناعة بسير الحياة حسب مجراها الطبيعي ، دفعني الى قبول العمل ، والنهوض في ساعة مبكرة ، والجري خلف باص الساعات الاولى ، وحفر الخنادق تحت المطر والجليد ، والغوص في الوحل والطين . اما النافذة الصغيرة التي كنت اطل منها على العالم الحافل بكل شيء ، فهي ، الجلوس مساء ، واستماعي الى القطع الموسيقية من المذياع .

تم بناء المصنع ، ونقلنا الى المدينة ، لحفر الشوارع المبلطة ، وتبديل الاسلاك الكهربائية القديمة باخرى جديدة ، واعادة تبليط الشوارع من جديد .

في هذه الفترة اصبحت قادرا على النهوض متأخرا ، والذهاب الى عملي ، والعودة مبكرا الى البيت . وذات يوم انتحى بي عامل قديم والقى علي موعظة حارة ، قال والكلمات تتواثب من فمه :

ـ ازفت ساعة تركك لهذا العمل ، انت لم تخلق لهذا ، نحن طبقة لا محترمة . متى اصبحت واحدا منا ، فلن تتخلص من قذارتنا ، لن تصبح انسانا نافعا . لقد اضعت في هذه الحياة ثلاثين عاما ، كم تمنيت لو تركتها ، كم تمنيت ، قم ، واهرب يا بني ، قم وابتهج ايامك التي لم تعشها بعد ، نحن سجناء ولكننا عمي لم نجد الطريق التي اضعناها.

الغريب ان كلماته كانت باردة لم تلفحني حرارتها ، فقد انطويت على العمل الروتيني ، وطفح قلبي بالارتياح لان الناس الكبار الذين يجلسون خلف مكاتبهم الفخمة يخططون حياتنا واعمالنا كانوا ينظرون الينا كقطيع من الماشية ، لا يتوقع منها اي التزام فكري . فقد سمحوا لنا ان نتجاهل مشاكل الحياة ومعناها ، قتلوا فينا طاقاتنا الفكرية الخلاقة ، لذا اخذت انزلق الى حياة التشرد كواحد من العمال الاخرين، تيري ، توش ، نيبر ، والصبي الشهواني . لم تتلهف نفسي الى مغادرة البلدة ، وانقطعت علاقاتي بالحياة . وفجأة حلقت حادثة موت في سماء اسرتي . فقد مات جدي ، ولونت حياتي بلون اخر .

كان ذلك صباح السبت . لم اترك فراشي الدافىء . عبرت امي الباب والقت بجملة اخبارية :

ـ جدك مات اليوم .

قالتها دون تأثر او حزن ، لم اتوقع منها ان تحزن ، لست ادري لماذا ؟؟

بعد نصف ساعة ، نفضت موكب النعاس من عيني ، ونزلت الى المطبخ . كانت وجبتي الصباحية ، بيضة واحدة وشريحة من لحم الخنزير حرقتها امي ، فافقدتها نكهتها ، تشاغلت امي بتنظيف المطبخ ، وكنا نسمع لحنا موسيقيا اتيا من المذياع .

لاتحدث عن جدي : كان موته متوقعا ، فقد لزم سريره عدة مرات في السنة الماضية ، ولم يبد اي انزعاج على وجه الطبيب عند تركه لغرفة جدي ، نويت ان اذهب لزيارته في الليلة السابقة ، ولكن اخي الصغير توسل الي بان آخذه الى الحفلة الموسيقية التي اقامها نادي العمال المحلي . وهكذا مات جدي دون ان اراه لاخر مرة . قالوا بان قلبه توقف عن النبض .

سألت امي : ـ هل تشعرين بالحزن يا أم ؟

قالت : ـ لا . كنت اتوقع موته بين لحظة واخرى .

انا اؤمن بانها كانت تحبه . فهو من اخرجها الى الحياة .ولكن ما جدوى الحزن ؟؟

انتقلت الى دار جدي ، علني اقوم بعمل ما . رأيت عددا من افراد اسرتي ، كانوا هناك ، يشربون الشاي بصمت ، ويلتزمون الحزن، اما جدتي فقد كانت مذهولة تماما . انا لا احبها ، اجتماعاتنا العائلية ، خاصة بعد ان تناثرت اوراق الملل وحطت علي . فانصرفت بحجة تسجيل الوفاة . واتفقوا على ذهابي بعد ان علموا ، بان المسجل يغلق مكتبه مبكرا يوم السبت ، واثناء وجودي في الباص حاولت ان اجوب في سر الموت . كان جدي انا ، جدي الوحيد ، فقد قتل جدي لوالدي في

الحرب العالمية الاولى وانا لا اعرفه ، اما هذا الجد الذي مات اليوم ، فقد كان يدللني دائما . كنت اول احفاده ، ولم يهتم في حياته كلها الا بي . ولن اكون مغاليا اذا قلت ، بانه لم يدلل احدا من اخوتي ، او ابناء خالاتي واخوالي كما دللني واحبني ، ومع هذا فانا لست واثقا ان كنت احبه ام لا ، اما ان يحبني هو ، فهو حقي ولا جدال فيه .

كانت جدتي امرأة لطيفة ، يتدفق الحب صاخبا من قلبها لكل مخلوق . ويستيقظ الفرح في عينيها عندما تسمع الضحكات منطلقة من فم جدي ، وتجلس صامتة تنظر بحب الى شعره الاحمر ، وتآكل تقاطيع وجهه وهو يحدثها عن مشاجرته للناس في حانات بلدتنا ، كانت تحبه حتى الموت ، وكنت اراه رجلا مرحا يجلب السرور والحلوى، ويحدثني بالنكات البذيئة مذ بلغت الخامسة من عمري ، الا ان نكاته لم تكن حول العلاقات الجنسية ، بل حول الناس وتصرفاتهم . وصلت الى الشارع الرئيسي ، ولم انقطع عن التفكير في جدي طول الطريق . ادركت الان انني لم آبه لموته اكثر مما كنت ساكترث لمجرد ذهابه في زيارة لبعض اقاربنا في « درم » لبضعة ايام . وجدته الان رجلا يصعب علي فهمه . هل اعد حفيدا قاسي القلب ؟؟ الم يقدم لي الهدايا منذ طفولتي ؟؟ الم يهدني قنبلته اليدوية التي كان يحفظها ويعتز بها منذ كان في الحرب العالمية الاولى ؟؟ اذكر بانه وعدني يوما بان يهبني دراجة عند انتهاء الحرب – كان يظن بان الحروب ستدوم – ربحت الدراجة منه . قال لي وهو يربت على كتفي :

– كانت حماقة مني ، كل الحروب ستنتهي يوما !!

بعد ان سجلت الوفاة ، اشتريت زجاجتين من البيرة وذهبت الى البيت . وفي يوم الاربعاء التالي اخذت اجازة لحضور الجنازة ، وفي اللحظة الاخيرة قررت ان لا اذهب الى المقبرة معهم ، وظللت في البيت حتى يعود الجميع ، وعند عودتهم ، فتحوا زجاجة من الشيري ووزعوا السندويشات ، وانطلقنا نتحدث بمرح ، وفجاة انفجرت جدتي ببكاء عنيف وهرعت الى خارج الغرفة ، فتبعها احد اخوالي ، وسمعته يقسم لها ، بان جدي قد انتقل من مكان الى مكان ، ومكانه الجديد مزهر ومشمس . لكنها مضت في بكائها بالرغم من توسلات خالي لها .

تأملت صورتي المعلقة على الحائط – صورتي وانا في الثانية من عمري ، ممتطيا كتف جدي . ثم جاءني الجواب مرتعشا، ثم قويا، كالوحي حين يحط علينا ، عند العثور على حل لغز صعب في الكلمات المتقاطعة . ان وفاة جدي لم تملأ صدري بالحزن ، فالموت امر لا اؤمن به ، ان الموت امر لا منطقي . اما ان الرجل لم يمت ، او انه لم يعش ابدا ، فالحياة لن تتغير ، ولن تقف وستبقى مستمرة ، ولا استطيع ان اتنبأ باي تطور .

غرقت في مقعدي وقلت لنفسي: « هذا صحيح ، لن يحدث شيء ، فلو حدثت الاشياء ، لكانت حياتنا بحاجة لنظرة جديدة اليها ، وبما اننا مؤمنون بان لا شيء سيحدث ابدا . لذا ينهض الرجال صباح كل يوم ، ويتوجهون الى اعمالهم ، ويتزوجون من فتيات يتراءين لهم جذابات فاتنات . ويحاولون ان يستمتعوا بالحياة الى اخر قطرة . وتمضي بهم الايام ، هادئة رتيبة ، لا ضجيج فيها ، ولا رنة فرح تنطلق منها ، لا خسارة ولا ربح ، فالاشياء الجوهرية ليست من دنيانا ، فلا واقع ، ولا اهمية لاي شيء . ولهذا السبب كان من المحتمل ان ابقى عاملا يدويا لعشرين عاما ، حتى اصبح رئيسا للعمال . وفيما كانت هذه الافكار تمر بعقلي ، اخذت اراقب خالي « ارني » وهو يقطع فخذ خنزير على الطاولة ، والهبني شعور بالفرح ، جعلني افقد شعوري بجسدي ، واحسست برغبة شديدة في النهوض والعبث بالصور وخوان الطاولة الابيض ، كطبيب يعالج مريضا ، امضه المرض واقعده ، وقلت في نفسي « يا للغرابة ، انا لم ار الدنيا من قبل ، كما رأيتها الان ، سأدون ملاحظاتي » .

وانتابتني رغبة ملحة بالانصراف في الحال ، سوف اجرب هذه الحالة الجديدة ، كما يجرب المرء نظارات جديدة عندما ينظر الى العالم الخارجي . نهضت ، وخرجت بخفة كانني ذاهب الى الحمام ، بعد ان همست باذن امي قائلا :

– سوف اراك في البيت .

كانت الدنيا خفيفة لا وزن لها ، استطيع رفعها ومداعبتها ، انها ليست مجرد « عالم » لا جدوى ، ولا معنى له . ها الفرصة قد ازهرت، لاقطفها بسرعة ، ولاستفد منها . وتدفق مني شعور بالحنان والحب لكل الناس الذين مررت بقربهم في الشوارع . رغبت بالابتسام العذب . ووددت ان اقول لهم : « لا تخافوا . انا اعرف بان دنيانا حقيرة وتافهة، لا تهربوا منها ، انا سيدها الان ، سأغيرها » .

لا سبيل الى احتمال العمل – حتى ليوم واحد – بعد ان تكشفت لي الحياة . لذا اتصلت هاتفيا بمكتب الشركة . ولفقت لهم قصة كاذبة ، تقتضي سفري العاجل الى لندن لتصفية بعض الامور التي كانت تخص جدي ، وقلت لهم :

– سآخذ القطار في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، فهل لي ان استغني عن الاخطار القانوني ، مع ارسال اجرتي الى عنواني في البيت عند دفع الرواتب ؟؟

لم يهتموا كثيرا ، كانوا لطفاء جدا ، فالاخطار ليوم واحد كاف للطرفين . ولكنهم ظنوا بانني وجدت عملا جديدا ، فقد سالوني عما اذا رغبت باخذ اوراقي بعد ظهر ذلك اليوم ، فاجبتهم بالنفي ، لانني لم ار ضرورة ملحة في حملي لهذه الاوراق ، في مستقبلي القادم .

بعد انتهاء المكالمة ، سطعت الشمس من خلف غيوم تشرين الثاني، وتذكرت جدي ، وشعرت بحب وامتنان عظيمين له . كان يهديني دوما اشياء كثيرة ، وكانت وفاته اخر هدية . وفي اليوم التالي اعطيت امي خمسة جنيهات ، واخذت قطارا الى لندن ، بعد ان استرد العالم وزنه العادي ، ولكن وجهتي في الحياة تحولت ، كقطار خرج من خط الى آخر.

لندن — ترجمة يوسف شرور

مفخرة العراق
مكتبة النهضة ببغداد
للطباعة والتوزيع والنشر
لصاحبها: عبد الرحمن حسن حياوي
اول مؤسسة ثقافية عراقية تعنى بنشر الآثار والمؤلفات العربية .
وضعت نصب عينيها منذ تأسيسها النهوض بالكتاب العراقي من حيث الاتقان في الاخراج والطباعة وجعله بمصاف ارقى المطبوعات .
تعتمدها جميع دور النشر والمكتبات اللبنانية في توزيع وترويج منشوراتها.
تحوي جميع منشورات البلاد العربية .
زرها مرة لتصبح صديقها الى الابد .
بغداد - شارع المتنبي - تلفون ٨٢٦٨٩